# الموجهات القيمية لكرونولوجيا الطب الشعبي في الجزائر
# (الدروشة انطلاقا و الرقية العيادية معقلا)

**أ.د/ عوفي مصطفى- جامعة باتنة، الجزائر**

**أ/ باشيــخ أسمـاء- جامـعة أدرار، الجزائر**

**الملخص:**

لقد داع الاهتمام البيولوجي والطبي "بالصحة" نظرا لاعتبارها مفهوما محوريا لهاذين الأخيرين منطلقين في تحليلهما من منهج باثولوجي غايته توسيم الداء واقتراح العلاج الدوائي الكميائي أو الوقائي لكبح العلة التي انطلقوا من مجافاتها في الأساس.

إلا أن هذا الزعم الضيق بات متجاوزا حاليا اذ زجت العلوم الاجتماعية ذاتها في خضم التشخيص الدائي و الحماية الصحية انطلاقا من السلوكات الاجتماعية للفاعلين على اعتبار أن المرض بمنطلق سوسيوثقافي هو نتاج سلوك غير سوي هذا السلوك الذي قد يكون منبعه العادات والتقاليد أو الثقافة الشعبية..وغيرها من موجهات السلوك الاجتماعي الكثيرة. كما قد تدخلت على اثر ذلك الممارسات الشعبية في الاستطباب فذاك المعالج الشعبي الذي يقدم نفسه في كل مرة بصورة نمطية موازية للمنظومة القيمية بالمجتمع والتي تتأرجح ما بين الميتافيزيقا والدينية والعامية الشعبية (المشعود، الدرويش، الراقي، الحكيم..) ، وهي كلها صياغات اجتماعية شعبية تجعل من الصحة موضوع اهتمامها مع اختلاف أساليبها ومنهجياتها وكذا مصادرها.

ومن خلال هاته الورقة البحثية نحاول بسط الحديث عن المحددات الثقافية للصحة والاهتمام السوسيولوجي بها وكذا الحديث عن واقعها في المجتمع الجزائري بمرور التغيرات القيمية به.

***Abstract:***

*Spread interest in biological and medical health due to consider as a key concept for these two starting points in the last two pathological approach that the labeling of the disease and the proposal from the governor or chemotherapy preventive fight against the disease which mainly went to the opposition.However, this narrow statement is currently surpasses become immersed social sciences is currently in the middle of the same diagnosis, and Aldaia health protection is the result of abnormal behavior, such behavior, which can be sources of its customs and traditions or popular culture, and many other routers social behavior. It can also intervene later in the popular practices against-indications, the same is the popular processor that drive the same every time generally parallel to the company's value system and that oscillates between metaphysics and religious slang and people ( juggler , Darawish, upscale, wise….).As allthe popular social formulations do about health interest with different methods and the methodology and sources.*

*And through thse circumstances, we try to rxtend the research documents discourses on cultural determinants of health and sociological interst in the well and talk about the reality of Algerian society changes the value on him.*

**مقدمة:**

لقد عرف مفهوم الصحة تناوليات تباينت بتباين الحق التخصصي انطلاقا من البيولوجيا التي كانت رحم لها ومرورا بالسوسيولوجيا التي استحدث ضمنها، وذلك لأنه ظهرت تخصصات فرعية قائمة بذاتها لتغطية الاهتمام بهذا الاصطلاح كعلم اجتماع الصحة أو علم اجتماع الطبي...وغيرهما.

وهذا بطبيعة الحال انطلاقا من دفعات قدمها الواقع المجتمعي لتطوير الدلالات الاجتماعية لذات المفهوم، ومن خلال مقالنا هذا سنناقش بعدا من أبعاد الصحة وهو الطب الشعبي بكل ما يحمل من خصوصيات مجتمعية تطورية في المجتمع الجزائري.

**أولا: مسار التأصل الاجتماعي لدلالات الصحة**

يعود الكثيرون بالاهتمام الاجتماعي للصحة إلى تالكوت بارسونز من خلال اسهامه المعروف بـ "النظرية النسقية" التي تعد من بين أهم النظريات الأساسية في علم الاجتماع.

حيث قد تناولت جميع الأطر الاجتماعية للمجتمع قيد التحليل بما فيها ذلك الاطار الصحي «اذ قد بدأ "بارسونز" ريادة دراسة البناء الاجتماعي للممارسة الطبية ضمن دراسته للنسق الاجتماعي 1951 حيث أجرى تنميطا لدور الممارس الطبي وتحليلا لدور المريض وتأثير كليهما على الجوانب الأخرى للبناء الكلي للنسق الاجتماعي»[1] هذا بالإضافة الى التحليلات سوسيوطبية الأخرى.

وقد نطرح على سبيل التمثيل تحليل "تالكوت بارسونز" لحالة المريض «إذ يرى أن المرض يمنح للمريض جملة من الامتيازات لا يمنحها له الاطار الاجتماعي حال صحته ومنها أن المريض يستحق الإعفاء من واجبات أو أدوار أو أنماط سلوكية معينة ...كما قد يتسامح معه الآخرون في تصرفات مستهجنة أو غير مقبولة في الأحوال العادية»2 أي أن الفرد يتخلى عن أدواره الاجتماعية حال مرضه حتى وإن كانت هذه الأدوار تتعلق بأطر ومجالات هامة والمجتمع حينها لا يشعره بعدم الرضا والانتقاص نتيجة وضعه المرضي بل على العكس من ذلك يحظى المريض من المزايا ما لا يحظى به حال عافيته.

«وفي عام 1960 قام جود w.goode بدراسة للمهن المتخصصة بما فيها الطب غير أنه خلص في نهاية دراسته إلى أن بعض المهن كالتمريض والخدمة الاجتماعية على سبيل المثال لا تتوفر فيها كل مقومات المهنة الحقيقية وخصائصها وبالتالي فقد أدخلها في فئة المهن شبه المتخصصة»[3].

وكأنها مهن مكملة لمهن أخرى أكثر تخصصا وهذه تعبر عن زاوية معينة من المعالجة التي قد تكون لها دلالة في بعض الأطر الدراسية، كما أنها قد تستهجن اذا ما اعتبرت كل مجموعة الأدوار المتشابهة هي مهنة مستقلة بذاتها وقد تكون فعلا مكملة لمهن أخرى ولكن ذلك لا يمنع استقلاليتها ولا يمس بتكاملها.

---

[1] علي مكاوي وآخرون، دراسات في علم الاجتماع الطبي والوطن العربي، العربية، القاهرة ، 1998.

[2] انتوني غدنز ، علم الاجتماع، تر:فائز الصيّاغ، مركز دراسات الوحدة العربية، ط4، بيروت، ب ت، ص 248.

[3] علي مكاوي، مرجع سبق ذكره، ص 468.

«كما نجد دراسة كاسل cassel للتأكيد على مدى تأثير التغير الاجتماعي السريع أو العنيف على الصحة، كما حاولت دراسات أخرى البحث عن مصادر الضغوط الاجتماعية وآثارها على الصحة والمرض ومن ذلك دراسة باركس parkes وزملائه على الأرامل في سن الخامسة والخمسين فأكثر للتحقق من تأثير ضغط اجتماعي معين هو وفاة أحد الأهل bereavement على معدل الاصابة بالمرض و أوضحت الدراسة زيادة معدل الاصابة بأمراض القلب بعد وفاة أحد الأهل بستة أشهر فقط»[1] وهو تعبير عن الربط بين متغير الرباط الأسري والمرض.

فإذن كانت كلها قرائن حاولنا أن نبرز من خلالها كيف يمكن أن يكون للصحة والمرض أفق آخر غير ما هو معتاد من المجالات التحليلية التقليدية، هذه المجالات التي أصبحت تبدوا ضيقة وعاجزة عن تفسير تلك الحالات التي ليس فيها مؤشرات غير تلك المؤشرات الاجتماعية المحضة، الأمر الذي رحب بدخول مجالات العلوم الاجتماعية عامة والسوسيولوجيا على وجه القصد والتحديد لتحليل تلك الظواهر بمنظوراتها النظرية وبآلياتها المنهجية.

**ثانيا:مفهوم الطب الشعبي:**

يعد الطب الشعبي من بين الأطر العلاجية التقليدية الذي عاش عليه آبائنا بل وتستمر الى اليوم في نوع من المواصلة الممارستية من ناحية وفي حلة من التجديد من ناحية أخرى

ولكن في كلتا الحالتين يتم فيها الاعتماد على المنطق التقليدي الشعبوي في العلاج، هذا على اعتبار أن الطب الشعبي هو تلك «الأفكار ووجهات النظر التقليدية حول المرض والعلاج وما يتصل بذلك من سلوك وممارسات تتعلق بالوقاية من المرض ومعالجته بصرف النظر عن النسق الطبي الحديث»[2].

أي أن الطب الشعبي هو جملة الاعتقادات الفكرية والعملية في ادراك المرض وتشخيصه وعلاجه أو الوقاية منه، كما يحدد مفهوم الطب الشعبي بأنه «مجموعة المعارف والمعتقدات والممارسات التي يمارسها أعضاء المجتمع والتي تتوارث من جيل الى جيل وهذه المعارف تنحدر من اطار الثقافة الشعبية وليس من اطار الطب الحديث، وإن كان التحليل العلمي قد أثبت أن بعضها يتسم ببعض الكفاءة العلمية»[3]

فالطب الشعبي بذلك هو سليل الذهنية الشعبية لأعضاء البناء الاجتماعي ينتقل بفعل العملية التنشيئية عبر الأجيال فهو معرفة موجودة لدى الجميع ولا تختص به فئة دون غيرها كما قد ينعت به

---

[1] نفس المرجع.

[2] محمد الجوهري وآخرون، الصحة والمرض من وجهة علم الاجتماع والأنتروبولوجيا، دون ذكر دار النشر، القاهرة، 2005، ص 110.

[3] نخبة من أعضاء هيئة التدريس، نخبة من أعضاء هيئة التدريس، الأنتروبولوجيا ، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2009، ص 203.

شخص على وجه التحديد «أي أن الطب الشعبي في هذه الحالة هو طب العامة من أعضاء المجتمع أو قد يلجأ الشخص الى ذوي الخبرة والمختصين في العلاج الشعبي اللذين يمارسون الوسائل والأساليب التي تحقق الراحة العضوية»[1].

وذلك بغض النظر عن علميتها أو لا لأنها في العادة ما تكتسب بالتوارث ولا يتعامل معها بنوع من الحزم والدقة في كميات العلاج لكون أن آليات العلاج تعد وفق الذهنية المجتمعية آليات إن لم تنفع لن تضر .

في حقيقة الأمر إنه بمجرد طرح مفهوم "الشعبي" كصفة لاحقة بالطب يعطينا مباشرة ايحاء وجود البعد الاجتماعي، لأن الممارسة الشعبوية هي أساسا ممارسة اجتماعية «والطب الشعبي يعد جزء من التراث الحي للمجتمع حيث يمكن من خلاله الوقوف على معرفة عادات وتقاليد المجتمعات ومن ثمة الالمام والتعرف على أساليب وأنماط التفكير وخبرات الناس عن الحياة والبيئة التي يعيشون بداخلها، فضلا عن التعرف على الموروث الثقافي وخبرات الأجيال ومدى اضافتهم لهذا الموروث في مواجهة مشكلاتهم الصحية والمرضية»[2].

فالطب الشعبي بذلك يمكننا من رصد حقبة زمنية من مسيرة المجتمع، فمن أنماط علاجها ومن آليات تشخيصها، ومن مسميات أمراضها يمكننا التعرف على الذهنية الاجتماعية لذلك المجتمع؛ فالطب الشعبي بذلك هو معطى اجتماعي بامتياز ويمكن أن نبرر هذا بجملة النقاط التالية:

. ارتباطه بمعتقدات أفراد المجتمع.

. أنه يمثل رد فعل طبيعية ومباشرة وتلقائية إزاء ما يواجهه الأفراد بالمجتمع من متاعب ومشاكل مرضية ومن ثمة يبدو فيه معنى للتفاعل بين الناس والبيئة التي يتواجدون فيها[3].

كما نجد ناهيك عن تلك المميزات الاجتماعية التي يختص بها الطب الشعبي، هناك أيضا أسباب مختلفة المجالات ساهمت في استمرار الوجود الاجتماعي له ونذكر منها مثلا:

. انتماء المعالج إلى نفس السياق الاجتماعي والثقافي للمنطقة التي يمارس فيها عمله الأمر الذي يجعل عملاءه يشعرون بقربه منهم فهو يحمل خصائص الثقافة ذاتها بما تتضمنه من رؤى و أفكار، وهو أيضا يرتدي نفس الملابس ويتحدث نفس اللهجة.

. استعارة المعالجين الشعبيين لبعض عناصر الثقافة الشعبية أثناء أداء أدوارهم وهو ما يدعم وصفاتهم أمام عملائهم كالاستعانة ببعض الأدعية والآيات القرآنية.

. المرونة في التعامل فقد ينتقل المعالج الى مكان العميل كما يتحلى ببعض السمات الشخصية كالصبر وسعة الصدر والهدوء والبشاشة.

---

[1] محمد الجوهري وآخرون ، مرجع سبق ذكره،ص 304.

[2] نفس المرجع ،ص 304.

[3] محمد الجوهري وآخرون ، مرجع سبق ذكره، ص 111.

. تعدد أدوار المعالجين الشعبيين:العلاج من الصداع والجروح والمفاصل والصرع الجني ...الخ1.

. اخفاق الطب الحديث في القضاء على بعض الأمراض.

. ظهور أمراض جديدة لم نسمع عنها سابقا فضلا عن الزيادة في الأمراض المزمنة.

. الحواجز النفسية التي يشعر بها المرضى اتجاه الأطباء ومرد ذلك الى النظرة المادية البحتة التي يتعامل بها الطب الحديث مع المريض.

. التكلفة الباهضة للعلاجات الحديثة وسوء الممارسة الطبية والتنافس التجاري بين المؤسسات العلاجية في الطب الحديث2.

فكما سبق الاشارة نلمح بشكل جلي أن الطب الشعبي كموروث سوسيوثقافي هو محتوى لازال البناء الاجتماعي لمجتمعاتنا العربية عامة ومنها الجزائري على وجه الخصوص يحتفظ باستمراريتة داخله، أي أنه نسق لم يضمحل ضمن الكيان الكلي للمجتمع وذلك لمسببات يكرسها المجتمع ذاته، ولفعالية التنشئة الاجتماعية التي تعمل على نقله عبر الأجيال بإضافات تقتضيها التغيرات الحادثة بفعل التغير الاجتماعي ولكن المحتوى الأصلي يبقى دائما موجود إلاّ أنه برؤية معصرنة وذلك تكيفا مع مشاكل عصرية وآليات عصرية وكذا قناعات عصرية أيضا.

**ثالثا: أصناف الطب الشعبي**

لقد بدى واضحا من خلال التعريفات أن الطب الشعبي يحمل معنى واسع حيث يضم أصناف وصور عدة قد تتقاطع مع بعضها وقد تنفرد كل واحدة منها على حدى.

حيث يمكن تقسيم الطب الشعبي الى أصناف هي بحسب تصورنا كالآتي:

❖ طب شعبي عامي: ونقصد به تلك المعارف والممارسات الموجودة لدى الجميع وهذا ربما ما نلمحه عند أجدادنا وأمهاتنا حتى وإن كانوا أميين فهم يعرفون مجال استطباب الكثير من الأعشاب، ويعرفون التعامل مع كثير من الأمراض كما لهم طرقهم وأساليبهم في ابعاد الحسد والعين وغيرها من تلك الأمراض الروحانية.

❖ طب شعبي ديني: وهو تلك الممارسات والاعتقادات التي تنعت نفسها بالشرعية وتعتمد في تشخيصها وعلاجها على القرآن الكريم من ناحية وما يسمى بالطب البديل أو الطب النبوي من ناحية أخرى، وفي الغالب ما يختص بهذا النوع من الطب فئة تقدم نفسها للمجتمع أنها عارفة به ومدركة له على أوجهه الحقة اللاّبدعية بحسب وصف أهل الدين والشرع.

❖ الطب الشعبي الغيبي: هو تلك الأنماط من الفعل والاعتقادات التي مصدرها ممارسات متعلقة بجوانب غيبية كتسخير الجن مثلا وهي ما تعرف بالشعوذة وتختص به فئة خاصة تعمل على

1 سعاد عثمان ، سعاد عثمان، التراث والتغير الاجتماعي، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية،القاهرة،2002، ص 185.

2 سمير اسماعيل الحلو، سمير اسماعيل الحلو ، «الطب الاسلامي نحو تطبيق عملي»، مجلة الحكمة ، مؤسسة المؤتمن، ب ب العدد 6، صفر 1416 هـ ، ص ص 158، 159.

اقناع المقبلين عليها على أنه لها قوى خارقة توصلها الى عالم آخر يساعدها في تحقيق أماني صعبة التحقيق بالقدرات الانسانية.

ومن خلال هذه التصنيفات الثلاث التي تم ذكرها آنفا يمكن القول أن وجود مختص في أحد تلك الأصناف لا يعني بالضرورة عدم اختراقه للأصناف الأخرى، أي أنه قد يكون معالج ضمن الطب الشعبي العامي والطب الشعبي الغيبي فهو مشعوذ وعارف بالآثار الاستطبابية للبعض الأعشاب أيضا، وقد يكون هناك من يخلط العلاج بالقرآن و ممارسات ترتبط بالشعوذة وهكذا فالأصناف الثلاث هي أصناف مفتوحة النسق فقد يتواجد المعالج في تلك الأصناف الثلاث معا أو في اثنين منها أو في أحدها فقط.

**رابعا:الواقع القيمي للمجتمع الجزائري وسيرورة الطب الشعبي**

**1) قيم الكرامات والتبرك:**

إن الطرح التاريخي للمجتمع الجزائري يقّر . بما لا شك فيه . أنه مجتمع تعرض لتوافدات عديدة (منها ما هو أجنبي و منها ما هو عربي) حيث أفرزت في كل مرة جملة من المظاهر التي تباينت بتباين خصوصية تلك الحضارة الوافدة، إلاّ أنه ما يهمنا هنا هو التوافد العثماني على وجه التحديد والقصد، و ذلك لكونه خلف في الجزائر العديد من المعتقدات والقيم الخاصة وأحدث بنية اجتماعية متميزة عن غيرها خاصة في بعدها الثقافي.

إذ من ما هو معروف عن العثمانيين أنهم حاولوا الاهتمام بذاك الجانب (الثقافي) وتدعيم مؤسساته المختلفة ومنها الزوايا و الطرق الصوفية «فهذه مدينة الجزائر عاصمة الدولة على سبيل المثال كانت تعج بالزوايا والأضرحة والقباب المقامة على الأولياء الصالحين ..وتثبت الاحصائيات أن عدد الزوايا والأضرحة ونحوها كان يفوق عدد المساجد والمدارس فقد كان بتلمسان ونواحيها أكثر من ثلاثين زاوية في آخر العهد العثماني»[1] .

وعند ذكر الزوايا تتبدى في الذهن جملة من المفاهيم المرتبطة بها كالكرامات مثلا والتي نعني بها تلك الخوارق التي يدعيها شخص ما والتي يحاول أن يبررها بأنه بار بالله فمنحها الله له «حيث قد شاع في أوساط العامة أن الولاية (الولي) التي تعني أساسا في المفهوم الاسلامي الايمان والتقوى لا تتم إلاَ مع الخوارق المـ ُلغية لقانون السببية...لذلك كثر الحديث عن كرامات الأولياء وضرورة الايمان بها إلى حد مستغرب، ويكاد يبطش بمن ينكر خارقا نسبوه إلى أحد رجالهم والعجيب أن أغلب كتبهم جعلت الايمان بهذه الخوارق من معالم الصراط المستقيم»[2].

«فقد عرف العثمانيين بذلك ما يسمى بالقبة وجمعها قباب، وهي عبارة عن أضرحة مبنية عليها مباني مربعة صغيرة تعلوها قبة ويتوسطها قبر رجل يشهد له بالصلاح ...وكانت هذه القبور تغطى بزرابي متنوعة ومتعددة وكان بعضها يفرش حول القبر حيث يجلس عليها الزوار حين يأتون للتبرك ولتقبيل القبر

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830.1500 ، دار البصائر، ج1، الجزائر، ب ت، ص ص 162 . 166.

[2] حسن علي خاطر، المجتمع العربي المعاصر، دار الشروق، الأردن، 2001،ص 89.

...وفي الأصل كان لهؤلاء الأولياء دور بارز في الحياة المدنية سواءا في الناحية الدينية أو السياسية أو الاجتماعية، فقد كان الأولياء يُظهرون البعض من الكرامات والخوارق التي يكتسبونها بفضل مكانتهم الخاصة عند الله وذلك بتنسكهم وتعبدهم ولهذا كانت أوامرهم عند الناس مطاعة، حيث يلجأ اليهم لحل النزاعات الاجتماعية والقبلية والحصول على الرأي السديد، والدعاء عند العزم على فعل شيء مهم»[1]

من ذلك نجد أن العهد العثماني كان عهدا لتكريس القيم الغيبية التي كانت تقدم في غلاف ديني غايته اقناع العامة بمضمونه بل وأكثر من ذلك «حيث إضافة الى تقديس الكرامات قد أفرزت معتقدات أخرى مشابهة مؤداها أن تلاوة الأوراد من الكتاب أو السنة أو تأليف المشايخ تصنع العجائب وتنزل البركات وتغني عن الأخذ بالأسباب، ومن أمثلة ذلك ما كان سائدا في العهد العثماني حيث كان يأتى ببعض العلماء ليقرؤوا صحيح البخاري في سفن الأسطول التركي حتى تحصل البركة و الحقيقة التي تجاهلها هؤلاء كما يقول "الغزالي" أن الأسطول يسير بالبخار لا بالبخاري»[3].

وهكذا ظل العثمانيون يقدمون للمجتمع الجزائري نسقا ثقافيا مفعم بالقيم الميتافيزيقية ذات الطرح التيولوجي، الأمر الذي شكل لحقبة من الزمن أسلوب تفكير الجزائريين اللذين ظلوا على ذلك الوضع حتى في الفترة الاستعمارية الفرنسية التي كانت تستغل تلك الافكار التي كانت تصل أحيانا لدرجة الخرافة وذلك بغية إبقاء المجتمع الجزائري متخلفا منشغلا بها، بل وقد شجعت قيام تلك الزوايا البدعية التي كانت تخدم مصلحتها بتظليل الفرد الجزائري وإبعاده عن الصورة الحقيقة للوضع، حيث انطلاقا من هذه القيم كانت الزوايا العميلة للاستعمار تُسوّق لفكرة أن الوجود الفرنسي قدر من الله، والمؤمن يرضى بالقضاء والقدر خيره وشره وهكذا يُكرس التظليل بالقول أن التواجد الفرنسي في الجزائر مرده إلى الارادة الربانية التي تعد قوى خارقة للعبد ومن واجبه الانصياع لها من باب التصديق والإيمان الخالص للرب، هذا الأمر الذي نلمح فيه انعكاس واضح لتلك القيم الغيبية التي كما سبق لنا الذكر قد حقنها التواجد العثماني في جسد الكيان الجزائري واستمر أثرها بفعل عوامل فرنسية قد دعمته لغاية واضحة هي تكريس الخنوع والخذلان في الواقع الجزائري.

**2) القيم الوثنية:**

تعد مرحلة الدروشة بمثابة صباح كان ليله الوجود العثماني أي أنها مرحلة هي أساسا تعد من إفرازات العثمانين حيث يرى "مالك ابن نبي" أن من ميزات هذه المرحلة أن أرواحنا ظلت مكدسة في محيط الطلاسم والخيال، أين مازالت الاعتقادات متواصلة في دراويش المجتمع (البهلول) والذي يعتقد في أنه يقول كلام غير عادي، بل كلام له قداسته ومهابته وأنه كلام نوراني، وكأن قوة خارقة أنطقته، هذا بالإضافة الى اعتقادات الحروز والتمائم لطرد الشرور «فقد كان هذا شأن الجزائر حتى عام 1925 فعلى

[1] مصطفى بن حموش، مساجد مدينة الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 2010، ص 21 .

[3] نفس المرجع، ص 89 .

الرغم من اسلامها هي تدين بقيم الوثنية التي قامت بنصبها في الزوايا حيث هناك كانت تذهب الأرواح الكاسدة لالتماس البركات ولاقتناء الحروز ذات الخوارق والمعجزات»[1].

فكما نلاحظ لازال في هذه المرحلة أيضا التفسير الغيبي للمشاكل الاجتماعية وللأمراض مستمرا في الواقع الجزائري بل وقد بلغ ذروته، ويبقى على هذا الحال إلى أن قامت حركات الاصلاح التي جعلت القضاء عليها أهم أهدافها «وبالفعل فقد خمدت نيران أهل الزردة وزالت عن البلاد حمى الدراويش وتخلصت منها الجماهير بعد أن ظلت طول خمس قرون ترقص على دقات البنادر وتبتلع العقارب والمسامير مع الخرافات والأوهام ...وهكذا كانت محاولات الاصلاح في تخليص الجزائر من كابوس قيم الوثنية»[2] إلا أننا عندما نتحدث عن الاصلاح فإننا نتحدث عن تحسُن في الأوضاع، وقد لا يكون القضاء جذريا بالضرورة الأمر الذي يجعلنا نرى الى يومنا هذا قيم التفكير الميتافيزيقي في ذهنية المجتمع الجزائري في جوانب معينة ولدى فئات دون الأخرى.

**3) قيم السلفية الجهادية:**

إنه في زخم كل تلك الطقوسيات والذهنيات والقيم الخرافية والوثنية السابقة الذكر كان لابد من ردة فعل اجتماعية أن تظهر بين الحين والآخر، الأمر الذي تجسد في الحركة السلفية* التي رأت أن في ذلك كله خروج عن الاطار الديني الأول.

وبهذا شكلت هذه الحركة في الجزائر وجها من وجوه المطالبة بالعودة للأصول الدينية وقد قامت بطرح جملة من القيم التي مضمونها العودة إلى حياة السلف الصالح في مختلف جوانب الحياة، وبذلك ضرورة تسيير البلاد وفق النهج السلفي «لأن الدولة حسبهم آنذاك قد أبعدت الاسلام من أن يكون مصدر الهام لصياغة معالم مستقبل الجزائر»[3].

الأمر الذي طرح خطابا دينيا حاول أن يضع خطوطا حمراء عديدة في حياة الفرد الجزائري ودعاه إلى الالتزام بها جبرا، لأنه بحسبهم تلك هي صورة الاسلام ومن لم يلتزم بها فهو خارج عنه أو مرتد، وقد كانت ضرورة الالتزام أمر لا بد منه حتى وإن كان ذلك بالعنف الذي كان توجهاً للسلفية الجهادية التي كانت مصدر رعب في الواقع الجزائري خلال عشرية من الزمن وسمت بالسوداء لفضاعة الوضعية الجزائرية آنذاك ولكثرة الهلع والقتل والرعب بين أوساط الجزائريين .

هذا الذي الوضع المتأزم الذي لا يكاد ينسى مطلقا لهوله وتدهور الأوضاع الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والسياسية للجزائريين حينها، ولكن هذا الأمر بالرغم من قساوته ورفضه من طرف الجزائريين

---

[1] مالك ابن نبي،مرجع سبق ذكره، ص 30.

[2] نفس المرجع، ص 31.

* السلفية نسبة الى السلف الصالح و هو تعبير يراد به المسلمون الأوائل من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين الذين عاشوا في القرون الثلاثة الأولى من الإسلام.

[3] عروس الزبير، الدين في المجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990، ص 499.

إلا أنه لفت الأفراد الى "العنصر الديني" ولكن بقيم تعد خاصة في مضمونها (قيم دينية بتأويل سلفي) وبذلك كانت هذه المرحلة بادرة من بوادر بداية اعلاء القيم والتفسيرات الدينية للواقع المعاش هذا بعد أن كان التفسير الخارقي والمعجزة أساس كل تفسير.

**4) القيم الاسلامية:**

إن المقصود هنا بالصحوة الاسلامية ذلك الانتشار الواسع لنطاق التفسير الديني والذي مس كل مجالات المجتمع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ...وغيرها، إذ كان من مظاهره انتشار الفضائيات الدينية المتخصصة، والمواقع الالكترونية الإسلامية، وكذا موجة الدعوة إلى الحجاب و انتشار الدعاة (نساءا ورجال، شبابا وشيوخ)...ومظاهر أخرى عديدة.

وقد كان للجزائر أيضا نصيب من تلك الصحوة أين بات الفرد الجزائري يبدي حرصا اتجاه الدين «وأصبح المقوم الديني يتدخل أكثر من أي مقوم آخر في تبلورات وتشكلات الهوية الثقافية للجزائريين وبذلك قد عرف هذا المقوم انتعاشا ونشاطا متجدد على حساب باقي المقومات الأخرى»[1].

وبذلك زاد الوعي الديني وخرجت الجزائر من مرحلة القهر المبني على قيم السلفية الجهادية إذ أصبح هناك نوع من المرونة في تقديم الدين والإقناع به، بل وحتى هذه الأخيرة (السلفية الجهادية) قررت تغيير أسلوبها ومنطق دعوتها فظهر بذلك ما يسمى "بالسلفية العلمية" التي حاولت نشر قيم السلفية بالكتب والمناظرات والقنوات التلفزيونية لا بالقتل والتعنيف، وبهذا أصبحنا نرى خطابات دينية عديدة بعد أن كان الوضع رهين خطاب ديني واحدا أو اللاّخطاب.

«إذن إننا نعيش الآن بقيم دينية منفتحة ومرنة، حيث تعد هي السائدة إذ قد أنتجتها نخبة من المفكرين والجامعيين من أصحاب التوجه الاسلامي الذي يدعو إلى أسلمة العلوم والمعارف وعن طريق وسائل متعددة يحاول توجيه المجتمع خاصة أصحاب الثقافة الشعبية إلى استهلاك هذه الأفكار... إننا الآن عندما نتجول بين المكتبات العمومية يدهشنا الكم الهائل لعناوين الكتب والمجلات الدينية، وكذا الأشرطة السمعية والأقراص المضغوطة، ناهيك عن القنوات التلفزيونية التي تعمل على نشر هذه القيم الدينية ومحاولة إحياء التراث العربي الاسلامي خاصة منها تلك التي ترضي حاجات العامة من الناس وتقدم لهم اجابات عن تساؤلاتهم المتزايدة يوما بعد يوم»[2].

وبذلك نجد أن الجزائر قد استفادت من موجة الاصلاح ومن موجة الصحوة التي كان هدفها اقصاء قيم الوثنية والقيم الخرافية وكل العادات والتقاليد السلبية فيه.

---

[1] خواجة عبد العزيز، «الدين،التاريخ، الثقافة:أي علاقة؟»، مجلة الحقيقة، منشورات الجامعة الافريقية،أدرار، العدد 18 ،2011 ،ص337.

[2] العماري الطيب، «التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري وإشكالية الهوية»، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، عدد خاص بالملتقى الدولي الأول بعنوان: الهوية و المجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري،ورقلة، 2011 ص441.

**5) قيم المراحل السوسيوتاريخية للجزائر وسيرورة الطب الشعبي:**

إننا من خلال التتبع السوسيوتاريخي الآنف الذكر نستشف أنه لكل وضع تاريخي مرت به الجزائر جملة من الافرازات القيمية، التي تتميز بنوع من الخصوصية النابعة أساسا من خصوصية المرحلة التاريخية ذاتها.

حيث بتواجد الوفود العثمانية تكرست قيم الكرامات والتبرك وهي قيم ميتافيزيقية في مضمونها، اذ جعلتنا نستشف أن أفراد المجتمع الجزائري تحت ظل العثمانيين كانوا يرون أن الحل لمشاكلهم والشافي لأمراضهم هي تلك البركات والكرامات.

وبأفول الوجود العثماني الذي ترك وراءه ترسانة ثقافية مُخزنة بجملة من القيم التي هي بحسب "مالك ابن نبي" تعد قيما وثنية امتزت بقيم الدروشة في محتوى اجتماعي واحد هو الواقع الجزائري، وبذلك نرى أنه تستمر معنا افرازات الذهنية العثمانية إذ يرى هنا المجتمع الجزائري أن الحل لمشاكله والمطبب لأمراضه هو دعوة من الدراويش أو تمسح بقبة ولي وهي فرصة بالمرة لظهور طبقة السحرة و المشعوذين الذين شدوا اليهم طبقة عريضة من المجتمع الجزائري.

لتأتي مرحلة الانعراج وبروز حركات الاصلاح الهادفة إلى قتل القيم الميتافيزيقية الوهمية والقيم الوثنية لصالح القيم الدينية الاسلامية، وبذلك قدمت السلفية الجهادية نفسها أنها هي المخلص من تلك الممارسات الغيبية الشركية بزعمها، فدعت بذلك إلى العودة للسلف الصالح في كل ممارساتهم، ومن ما هو معروف أن حدا السلفية هما (القرآن والسنة) الأمر الذي بدأ يلوح بأصابع الاتهام الى المشعوذين وضرورة اقصائهم وعدم الخضوع لمغرياتهم ووعودهم التي لا تجعل من القرآن عمدا ولا من السنة مكملا.

هذا الأمر الذي دعمته الصحوة الاسلامية المدعمة بوسائل الاعلام، والدعاة، والمواقع الالكترونية الدينية...وغيرها، حيث حينها حلت القيم الدينية (الاسلامية) محل القيم القديمة وأصبحت هي الموجه للسلوك الاجتماعي للفرد الجزائري.

وحينها أصبح هذا الأخير (المجتمع الجزائري)يرى أن الحل لمشاكله والشافي لأمراضه هو القرآن والطب النبوي بعد أن كان يقترح لها حلولا أخرى غير ذلك، الأمر الذي نجد فيه أنه يدعم فكرة وجود المعالجين بالقرآن وهم ما يعرفون "بالرقاة" هذه الفكرة التي أوجدت لنفسها مكانا في المجتمع الجزائري الذي تعد القيم الروحية أهم مأطراته.

وبذلك خلص المجتمع الجزائري بتبنيه للقيم الاسلامية إلى أن "الراقي" هو المعالج الذي يعطيه الشرعية الاجتماعية ضمن نسق الطب الشعبي، وبذلك هو يحاول أن يضفي عليه نوعا من الاعتراف الذي نلمسه بعدد المقبلين عليه، وبهذا يحل الراقي محل الولي ومحل المشعوذ وهو الدور الذي لم يقصي هذين الأخيرين جملة وإنما خفف من تواجدها في الواقع الجزائري.

**خاتمة:**

إن التطور الفكري الحالي ساهم في اعادة الصياغة المفاهيمية للكثير من المعاني الاصطلاحية ومنها دلالات مفهوم الصحة الذي توسع مجال الاهتمام به انطلاقا من الاهتمام الوبائي الضيق الى مجالات أخرى غيرها كالمجال الاجتماعي الذي يعد صلب اهتمامنا.

ثم إن الحديث عن الصحة والمرض يقودنا الى العلاجات وممارسيها في الاطار التطبيبي كالطب الشعبي مثلا الذي عرف تصبغا مجتمعيا واضحا، اذ انطلاقا منه نستشف ذهنية المجتمع وأساليب تفكيره ومنطلقاته ونمط الفعل السائد في اطاره.

وعلى غرار ذلك نجد المجتمع الجزائري الذي عرف تغيرا في شخصية المعالج الشعبي بتغير النسق القيمي للمجتمع، خاصة في المحتوى القيمي لكل حقبة زمنية فيه، اذا كما سبق لنا الذكر شكلت القيم الدينية فيه ركيزة هامة دعمت تغير صفة الطبيب الشعبي في المجتمع و أعطته تمثلا نمطيا يستجد بتجدد شكل القيم المجتمعية السائدة.

*** قائمة المراجع :**


**1.** أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830.1500 ، دار البصائر، ج1، الجزائر، ب ت.

**2.** انتوني غدنز ، علم الاجتماع، تر:فائز الصيّاغ، مركز دراسات الوحدة العربية، ط4، بيروت، ب ت.

**3.** حسن علي خاطر، المجتمع العربي المعاصر، دار الشروق، الأردن، 2001.

**4.** خواجة عبد العزيز، «الدين،التاريخ، الثقافة:أي علاقة؟»، مجلة الحقيقة، منشورات الجامعة الافريقية،أدرار، العدد 18،2011 .

**5.** سعاد عثمان، سعاد عثمان، التراث والتغير الاجتماعي، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية،القاهرة،2002.

**6.** سمير اسماعيل الحلو، سمير اسماعيل الحلو ، «الطب الاسلامي نحو تطبيق عملي»، مجلة الحكمة ، مؤسسة المؤتمن، ب ب العدد 6، صفر 1416 هـ .

**7.** علي مكاوي وآخرون، دراسات في علم الاجتماع الطبي والوطن العربي، العربية، القاهرة ، 1998.

**8.** محمد الجوهري وآخرون، الصحة والمرض من وجهة علم الاجتماع والأنتروبولوجيا، دون ذكر دار النشر، القاهرة، 2005.

**9.** عروس الزبير، الدين في المجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990.

**10.** العماري الطيب، «التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري وإشكالية الهوية»، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد خاص بالملتقى الدولي الأول بعنوان: الهوية و المجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري،ورقلة، 2011 .

**11.** مصطفى بن حموش، مساجد مدينة الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 2010.

**12.** نخبة من أعضاء هيئة التدريس، نخبة من أعضاء هيئة التدريس، الأنتروبولوجيا ، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2009.